الى مؤتمر الفردوسي

٣ ـ بين القاهرة وطوس

من همذان الى طهران

للدكتور عبد الوهاب عزام

ثم مررنا بكنكاور بعد ساعتين من كرمانشاهان . وهي قرية صغيرة بها آثار معبد قديم . وبعد ساعة مررنا بقرية أسد آباد ، وهي قرية السيد جمال الدين الأفغاني ، وبها بعض قرابته . كذلك أخبرني بعض الثقاة . ويقول الأفغانيون إنه من أسد آباد القريبة من مدينة كابل . وكذلك أخبر السيد عن نفسه . ومهما يكن فقبيح أن تتنازع رجال الأسلام العظام عصبية الأقوام والبلدان . فقد كان المسلمون أمة واحدة لها موطن واحد هو دار الاسلام ، والسيد جمال الدين عربي هاشمي حسيني ، ولكنه كما قال الشاعر

أبي الأسلامُ لا أب لي سواه ... إذا افتخروا بقيس أو تميم

فنحن بنو الأسلام والله واحد ... وأولى عباد الله بالله من شكر

فان أراد المسلمون أن يفترقوا أقواماً وبلداناً وشيعاً ، فلا يظلموا أسلافهم العظماء بزجهم في هذا المعترك ، فقد كانوا أعظم نفوساً وأسمى أفكاراً من أن تحيط بهم عصبيات اللحوم والدماء ، والأرض والبناء

وأسد آباد قرية أسسها أسد بن ذي السرو الحميري في زعم الرواة ، وهي على مرحلة من همذان الى الجنوب والغرب منها ، في حضيض جبل ألوند (جبل أسد آباد) ، وكانت منزلاً كبيراً على الجادة العظمى بين بغداد وهمذان ، وكانت في العهد الأسلامي الى عصر المغول غنية رائجة التجارة ، كثيرة السكان ، نشأت كثيرا من العلماء . وهي اليوم قرية صغيرة . وعندها كانت الوقعة الكبيرة بين السلطانين السلجوقيين محمود بن محمد بن ملكشاه وأخيه مسعود سنة أربع عشرة وخمسمائة . وعلى ثلاثة فراسخ من أسد آباد أبنية ساسانية تعرف في الكتب العربية باسم مطابخ كسرى

ثم ارتقينا جبل أسد آباد ، وهو جبل شامخ فسيح ، تتراءى بين قممه وأوديته مناظر جميلة جليلة ، محبوبة هائلة ؛ رأيناه وقد ذبلت أعشابه ورياحينه وأشجاره . وقيل لنا إنه في الربيع يبدو في حلل رائعة من الأزهار مختلفة الألوان ، لا يعرى منها مكان في القمم والأودية ، وتُرى الطرقُ جدائدَ على سفح الجبل ، تتمعج فيها السيارات صاعدة وهابطة ، وقد عدّ سائقو السيارات في بعض الطريق اثنتين وسبعين ثنيّة ، فما ينعطف السائق الى اليمين إلا لينعطف الى اليسار ، وهكذا اثنتين وسبعين مرة أو أكثر . ولكن الطريق في جملتها ممهدة واسعة مأمونة ، لم نشعر فيها بالخوف الذي أنذرنا به من قبل

هذه همذان الجميلة ، في حجر جبلها الأشم ، جبل ألوند . تبدو في زينة من أشجارها الباسقة ، وبساتينها الواسعة . هذه بلدة بديع الزمان ، وأحمد بن فارس ، وابن الفقيه . هذا مرقد الشيخ الرئيس أبي علي بن سينا ، ليت الوقت يتسع فنقضي بهمذان أياماً نتعرف حاضرها ، ونتلمس أعلام التاريخ من ماضيها

همذان مدينة عظيمة قديمة ، ذكرت في الآثار الفارسية القديمة باسم هگمتانة ، وهي في التوراة أخمتا ، وفي كتب اليونان أكبتانا . وقد لجأ اليها دارا بعد أن هزمه اسكندر في موقعة « أربل » حتى قال ابن حوقل إنها كانت هي وأرباضها فرسخاً مربعاً . وصارت حاضرة لبعض دول السلاجقة . وقد روى ابن الفقيه الهمذاني وياقوت كثيراً من أخبارها وما قاله الشعراء فيها ، وبردها شديد جداً . وقد روي في ذلك أن عبد الله بن المبارك قدمها ، فأوقدت بين يديه نار ، فكان إذا سخن باطن كفه أصاب ظاهرها البرد ، وإذا سخن ظاهرها أصاب باطنها البرد فقال :

أقول لها ونحن على صلاء ... أما للنار عندك حرّ نار

لئن خيّرت في البلدان يوماً ... فما همذان غندي بالخيار

وقال آخر :

همذان متلفة النفوس ببردها ... والزمهرير ، وحرها مأمون

غلب الشتاء مصيفها وربيعها ... فكأنما تموزها كانون

وقيل لأعرابي كيف رأيت همذان ؟ فقال أما نهارهم فرقاص ، وأما ليلهم خمّال ، يعني أنهم بالنهار يرقصون لتدفأ أرجلهم ، وبالليل يحملون ثياباً كثيرة

دخلناها والساعة واحدة بعد الظهر ، فنزلنا في دار بظاهرها ، اسمها باغ رئيس الاسلام ، وهي دار جميلة ذات حديقة كبيرة ، وفيها مجلس واسع حول حوض عظيم . نزلنا بها فاسترحنا وتغدينا ، وجلسنا برهة وأخذت صورتنا

وقد رأيت صاحبنا السندباد الذي ذكرته آنفاً رتب الحاضرين

لأخذ الصورة . فقلت يا سندباد أنت فى كل مكان ولكل عمل . انك أبو الفتح الأسكندرى أو أبو زيد السروجى ، فقال الأستاذ منورسكى : هذا ابن بطوطة . ومما أذكر من لطائف هذا المجلس أن أحد مندوبى الهند محمد اسحاق ، نظر إلى أشجار عنب قصار ، فسألنى ما هذا ؟ قلت كرم ولكنه صغير ، فقال إذاً ما كذب الثعلب فى الحكاية المعروفة ، حين قال هذا حصرم . فعنب هذا الكرم فى متناول الثعالب . ثم خرجنا لزيارة قبر الشيخ الرئيس ، دخلنا الباب إلى رحبة تنتهى إلى بابين أيسرهما باب مكتبة صغيرة عامة ، والأيمن مكتوب فوقه « آرامگاه أبو على بن سينا » أى مرقد أبى على بن سينا . دخلنا حجرة صغيرة بها قبران متشابهان يغطى كلا منهما صفيحة واحدة من الحجر عليها نقوش كثيرة . ويحيط بها سياج من حديد . فالقبر الذى يلى الباب قبر الشيخ الرئيس ، والذى إلى جانبه قبر رجل اسمه أبو سعيد . قال بعض أصحابنا إنه أبو سعيد بن أبى الخير الصوفى المعروف . وليس هذا سديداً فابن أبى الخير مات فى خراسان

ثم ذهبنا لزيارة مزار هنالك يعظمه اليهود ويحجون اليه ، ومن أجله كثر عددهم فى همذان حتى صاروا زهاء ألفين — وهو فى زعمهم قبرا ايستر ومردخاى . وهما امرأة ورجل من اليهود ، لهما قصة فى التوراة فى « سفر ايستر » . وخلاصة القصة أن ايستر كانت فى حضانة ابن عمها مردخاى فى مدينة سوس ، وأن ملك الفرس أخشويرش غضب على امرأته وشتى ، وأراد أن يختار غيرها ، فعرضت عليه فتيات مملكته ، فاختار ايستر اليهودية وحظيت عنده . وكان هامان وزير الملك قد نقم على مردخاى أنه لا يسجد له كما يسجد الناس ، فأغرى الملك باليهود وأخرج أمره بقتلهم حيثما ثقفوا فى المملكة . وكاد مردخاى وايستر لهامان حتى أمر الملك بصلبه على الخشبة التى أعدها هو لصلب مردخاى ، وكتب الملك إلى الولاة ألا ينفذوا أمره فى اليهود وأن يسلطوا اليهود على أعدائهم فيقتلوهم

والقبران كبيران عليهما سياجان ، وهما فى حجرة ذات قبة لها مدخل صغير واطئ لا يدخله الداخل إلا راكعاً

قضينا فى همذان ثلاث ساعات ونصفا ، ثم برحناها والساعة أربع ونصف ، متوجهين تلقاء قزوين

برحنا همذان ، وما قضت النفس منها لبانة
وتلفتت عيني فذ خفيت عني الطلول تلفت القلب

٣٠٦٥

وبعد ساعة نزلنا منزلاً على الطريق اسمه رزان ، وقد أعد لنا الشاى والفاكهة ، والفستق واللوز الخ ، فرأينا ضرباً من الحمص والفستق كبيراً لم نر مثله من قبل . وكان سير دنسن رُس ، والشاعر الانكليزى دِرنك ووُتر قد سبقا إلى هذا المنزل ، إذ فارقا همذان قبل الركب دون أن يزورا قبرى ايستر ومردخاى ، فطال بهما الانتظار فى هذا المنزل ، فلما بلغته أنا ورفيق عبد الكريم الحسينى قابلنى أستاذى رُس دهشاً يقول : لماذا تأخرتم ! هل زرتم ايستر ومردخاى ! قلت نعم . قال هل ألقى فلان هناك محاضرة طويلة ؟ قلت محاضرة قصيرة . قال ذلك ما ظننت . قد تأخرنا جداً وأظلم الليل . ثم سرنا قبل أن يدركنا الرفاق فى طريق موحشة تتخللها قرى وضياع قليلة ، منها مكان اسمه آب گرم أى الماء الحار فيه حمة ، أى ينبوع ماء حار . وقفنا للاستراحة ورؤية الينبوع ، فتركنا السيارة ومشينا وراء رجل يحمل مصباحاً حتى أتينا النبع ، فاذا حجرة فيها حوض يفور منه الماء ، فقلت لصاحبى : ما أحسنه حماماً لو هيئ له بناء . وكم فى الشرق من معادن ومياه أغفلتها الأفكار والأيدى ! واستأنفنا السير ، وطال بنا السفر ، حتى لاحت قزوين تحت ظلام الليل ، فوردناها متعبين والساعة تسع ونصف من المساء ، وقدم بقية الركب بعد ساعة . بتنا فى دار جميلة بجانب كنيسة روسية . وقد وهبت الدولة الروسية هذه الدار والكنيسة وما يتصل بهما للدولة الايرانية

وقزوين بلد قديم ذكره بطليموس باسم قسابين . وهى على الجادة العظمى من بغداد إلى خراسان ، وتلتقى عندها طرق القوافل الآتية من الشرق والغرب والشمال والجنوب ، فمن أجل ذلك اتسع عمرانها فى القديم وراجت تجارتها ، وهى على مقربة من جبال ألبرز ، ويجرى عندها نهر صغير يفضى إلى نهر أبهر ، وتبعد عن طهران مائة وخمسين كيلاً

وكانت قبل الأسلام وبعده ثغراً لمحاربة الديلم . وقد مصرها سعيد بن العاص بن أمية ، وجعلها مغزى أهل الكوفة . وأغزى الحجاج ابنه محمدا الديلم ، فنزل قزوين وبنى بها مسجداً سمى بعد مسجد الثور . وبنى موسى الهادى مدينة بجوارها عرفت بمدينة موسى . وبنى المبارك التركى مولى المأمون أو المعتصم حصناً بها سماه المباركية . وروى ياقوت « اجتاز الرشيد بهمذان ، وهو يريد خراسان ، فاعترضه أهل قزوين ، وأخبروه بمكانهم من العدو ، وعنائهم فى مجاهدته ، وسألوه النظر لهم ، وتخفيف ما يلزمهم

من عشر غلاتهم فى القصبة . فسار إلى قزوين ودخلها ، وبنى جامعها ، وكتب اسمه على بابه فى لوح حجر . وابتاع بها حوانيت ومستغلات ، ووقفها على مصالح المدينة ، وعمارة قبتها وسورها » . وقد ذكرها بديع الزمان باسم الثغر ، فى المقامة القزوينية التى أولها ، غزوت الثغر بقزوين ، سنة خمس وسبعين . وروى بعض المحدثين أخباراً فى فضائل قزوين ، وألحث على الأقامة بها لكونها من الثغور . وقد ذكرت فى الشعر العربى . ومن ذلك قول الطرماح ابن حكيم

خليلى مدّا طرفك هل ترانى ظعائن باللوى من عوكلان
ألم تر أن عرفان الثريا يهيّج لى بقزوين احتزانى

وقد نشأت قزوين جماعة من العلماء والأدباء ، منهم زكريا ابن محمد صاحب عجائب المخلوقات المتوفى سنة ٦٨٢ ، ومحمد الله المستوفى المؤرخ صاحب تاريخ گزيدة ، ونزهة القلوب فى الجغرافيا ، المتوفى سنة ٧٥٠ ، وأبو حاتم محمود بن الحسن الفقيه الشافعى أخذ عن الأسفرائينى والباقلانى ، وأخذ عنه الشيرازى وله كتب كثيرة ، منها كتاب الحيل فى الفقه وتوفى سنة ٤٤٠ ، ومنهم الحكيم شاه محمد ، الذى أخذ عن جلال الدين الدوانى ، وذهب الى مكة للمجاورة فدعاه السلطان بايزيد الثانى الى استانبول فعاش فى رعايته ورعاية سليم وسليمان من بعده ، وكتب التفسير والعقائد والفلسفة ، وترجم حياة الحيوان للدميرى الى الفارسية

تركنا قزوين والساعة تسع ونصف من صباح الأربعاء ٢٤ جمادى الثانية سنة ١٣٥٣ (٣ أكتوبر سنة ١٩٣٤) ، فبلغنا طهران بعد الظهر ، ونزل جماعة منا فى الفندق الكبير (جراند أوتيل) وآخرون فى الفندق النادرى

عبد الوهاب عزام

لجنة التأليف والترجمة والنشر

ضحايانا الأطفال

هو العدد الأول

من سلسلة **مكتبة المعلم**

التى ستصدرها اللجنة

لبسط أحدث الأساليب والاتجاهات

فى التربية والتعليم

لا غنى عن هذه السلسلة لكل معلم يريد أن يتمشى مع روح العصر

المشرف على اصدارها : اسماعيل محمود القبانى الأستاذ بمعهد التربية

معرب الكتاب الأول : محمد عبد الواحد خلاف مدير إدارة الجمعية الخيرية الاسلامية

« يصدر هذا الكتاب فى يوم الخميس ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣٤ »